مدرسة الإسكندرية

كيف فسر الآباء الأوائل للكنيسة الأسفار المقدسة (٢)

مركز الأبحاث بالمجلة

إن لم تؤمنوا فلن تفهموا

العدد التاسع - ٢٠١١

مجلة مدرسة الإسكندرية
عدد ٩

كيف فسر الآباء الأوائل الأسفار المقدسة (٢)

إعداد: مركز الأبحاث بالمجلة

مدرسة الإسكندرية

كيف فسر الآباء الأوائل للكنيسة الأسفار المقدسة (٢)*

إعداد مركز الأبحاث بالمجلة
R-center@alexandriaschool.org

مُقدمة:

تناولنا في مقالنا السابق، الحديث عن رؤية كلٍّ من يوستين الشهيد وميليتوس أسقف ساردس في تفسير الأسفار المقدّسة. حيث قدّم يوستين الفهم المسيحي للعهد القديم مُعلِّمًا بأنّ المحور الرئيس لفهم الأسفار المقدسة هو أن اللوغوس Λόγος الذي هو كلمة الله قد جاء ليولد بيننا، في الزمن، بحسب ما أوحَى به الروح القدس الناطق في الأنبياء، في الأسفار، وبتجسُّد ابن الله قد تأسَّس العهد الجديد. كما أن هناك ترابطًا قويًّا بين العهدين؛ القديم والجديد بسبب وحدة التدبير الإلهي في العهدين؛ في الخلق والفداء، وأنه في العهد الجديد كان هناك تحقيق لقصد الله لخلاص الإنسان.

ويرى ميليتوس أسقف ساردس أن نبوءات العهد القديم والعديد من أحداثه ترمُز وتُشير إلى تجسُّد ابن الله وموته وقيامته، فنرى في العهد القديم عمل الله التمهيدي لقصده الإلهي، وفي العهد الجديد عمله النهائي الذي قد تحقَّق بتجسُّد ابن الله، الذي من خلاله، كلّ الأشياء قد تغيَّرت وقد أتت نحو كمالها.

وفي مقالنا هذا نتحدث عن تفسير الأسفار المقدّسة عند القديس إيريناؤس أسقف ليون.

---

* المرجع الرئيس لهذا المقال:
Thomas F. Torrance, Divine Meaning: *Studies in Patristic Hermeneutics, Early patristic Interpretation of The Holy scriptures*, T&T Clark, Edinburgh, 1995, pp.106-129.

رؤية القديس إيريناؤس في تفسير الأسفار المقدسة:

لقد ساهم القديس إيريناؤس كثيرًا، أثناء الصراع العقائدي في القرن الثاني ضدّ الهرطقة الغنوسيَّة، لتوضيح تعليم الكنيسة الصحيح بأمانةٍ على أُسُس مستقاة من الأسفار المُقدَّسة[1]. والقارئ لكتابات القديس إيريناؤس يلمح تأكيده على أنّ تفسير الأسفار يتمّ من داخل الأسفار ذاتها وبحسب قانون الحقِّ وليس من مرجع غريب مثل ما فعله الغنوسيّون. كما أنّ تفسير الأسفار المُقدّسة وفهمها مبنيٌ على الإيمان بمحتواها، إذ لا يُمكن فصل أحدهما عن الآخر. فالعلاقة والترابط القوي بين الإيمان والفهم هي سمة مميّزه لتفسير الأسفار عند القديس إيريناؤس، فعلى سبيل المثال يُعلِّق القديس إيريناؤس على الآية الواردة في سفر أشعياء: «إن لم تؤمنوا فلن تفهموا» (إش ٧ : ٩ س) في مقدمة كتابه: "الكرازة الرسوليّة"، فيقول:

"الإيمان يفرز الحقّ، لأنّ الإيمان مُؤسَّس على الأمور الموجوده في الواقع، حتى إنّنا نؤمن بما هو حقيقي كما هو في الواقع، وإذ نؤمن بما هو موجود حقًّا كما هو، فإننا نحفظ اعتقادنا راسخًا من جهة هذه الأشياء. إذن، فإنّ الإيمان حفظٌ لخلاصنا، فمن الضروري أن نبذل كلّ اهتمام لحفظ هذا الإيمان، وأيضًا لكي يكون فهمنا لهذا الإيمان فهمًا صحيحًا حقيقيًّا" [2]

وهذا يعني أنّ الإيمان يأخذ معقوليّته من الحقِّ ذاته، كما أن العقل يوافق بل ويؤمن بالحقائق على نحوٍ تام طبقًا لما هو حادث بالفعل. تلك هي الطريقة المتّزنة والعمليّة التي يُطبّقها القديس إيريناؤس في تفسير الأسفار، ليُخْرِج إلى النور قوام وطبيعة الأسفار المقدّسة، ويُقدِّم فهمًا مترابطًا ومُنظّمًا للأسفار من داخلها، وبذلك يُدحِض الافتراضات الزائفة التي يوجّهها الغنوسيّون ضدّ الأسفار المُقدّسة، مُحرِّفين معانيها الصحيحة، وكذلك يُقدِّم فهمًا صحيحًا للعبارات

---

[1] C.F. Adv.hear, 2.35.4

[2] القديس إيريناؤس، الكرازة الرسولية، ترجمة د. نصحي عبد الشهيد ود. جورج عوض، المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائيه، أغسطس ٢٠٠٥م، ٦٧.

الكتابيّة ويُظهِر انسجامها مع جسم الحقيقة[٣]. ولقد خصَّص القديس إيريناؤس عددًا من الفصول من الجزء الثاني لكتابه "ضدّ الهرطقات"، يشرح طريقته المنضبطة والمُحقَّقة لمعرفة وفهم وتفسير الأسفار بصورة صحيحة[٤].

يُبرِز القديس إيريناؤس رفضه وتفنيده للمحاولات الغنوسيّة، حيث إنّهم يُطبّقون أرقامًا لتفسير الأسفار ومعرفة الله، فما عمله الغنوسيّون هو أنّهم اختلقوا نظامًا عدديًّا، ليختاروا من الأسفار ما يوافق هذه الأعداد المُناسبة لطريقتهم. إنّ القديس إيريناؤس، مع أنه لا يرفض وجود الرموز في العهد القديم، إلاّ أنّه يرفض أي ترابط بين الأعداد الموجودة في العديد من الأسفار وبين العالم السمائي، حيث يرى أنّه من غير المعقول تطبيق أرقام على الله[٥].

لقد أخطأ الغنوسيّون في التفسير عندما دفعوا الخليقة ضدّ نظامها الأصلي ليغيّروها إلى العديد من الأشياء التي ليس لها وجود في الواقع، لكي يصلوا إلى معنىً من خارج الطبيعة ومن خارج الأسفار. الطريقة الصحيحة - كما يراها القديس إيريناؤس - هي أن نُؤكِّد على ترتيب الأشياء المخلوقة، في الطبيعة وفي سياق التاريخ، لنجعل أفكارنا تتّفق مع ما هو موجود وكائن وما هو منطقي. إذ، من خلال تلك الطريقة، نعمل بقانون من طبيعة الأشياء، كأن نعترف بأنّ الخليقة بحسب طبيعتها خاضعة وتابعة لله وليس العكس. هذا ما يدعوه القديس إيريناؤس: قانون الحق[٦].

المبادئ العامة للفهم الصحيح للأسفار المُقدَّسة:

١- في معرفتنا الفعليّة لله، التي استقيناها من دراسة الأسفار وتعلّمناها بواسطة الحقّ، نعرف، بدون شكٍّ، أنّ الله ليس كالإنسان وأفكاره ليست كأفكار الإنسان. إنّ الله لا يُمكن معرفته وإدراكه في عظمته ومجده الخاصّ

---

[3] Irenaeus, *op. cit.*, 1.9.2-4
[4] *Ibid*, 2.25-28
[5] *Ibid*, 2.24-1f ; 1.3.1-6.
[6] *Ibid*, 2.24.1-25.2;28.1.

وحتّى في معرفتنا المحدودة للّه نبقَى واعين بأنّه غير موصوف وأنّه يسمو على كلّ التعبيرات التي نقولها عنه[٧].

٢. إنّ الإنسان يُمكنه فقط أنْ يحصل على معرفة تتناسب مع وجوده المخلوق داخل نظام الأشياء في هذا العالم. والإنسان هو مخلوقٌ، ودائمًا خاضعٌ للّه، ويُمكنه أنْ يعرف جزئيًّا، بيد أنّه لا يمكنه أن يملُك خبرة معرفة كلّ الأشياء مثل اللّه، إذ يجب عليه أن يضبط أفكاره بسبب قصوره، فهو لا يملك القدرة ليعلو فوق ذاته في خضمّ بحثه عن أصل الأشياء. لذا يجب على الإنسان أن يحفظ النظام الصحيح للمعرفة بالتخلّي عن الأفكار البعيده عن ذاته، لأنّ مَنْ يُريد أن يجعل ذاته أعظم من اللّه يكون قد أصابه الجنون التّام[٨]. يجب علينا أن نترك للّه الأشياء التي تقع في دائرة معرفته وحده، ونحفظ لأنفسنا ما يقع في دائرة محيط معرفتنا المحدودة[٩].

٣. بالرغم من كلّ ذلك فقد دخل اللّه إلى نطاق معرفتنا البشريّة من خلال محبّته ورحمته اللاّنهائيّة، لا لكي نعرفه في جوهره أو عظمته، إذ لا يوجد إنسانٌ يستطيع أن يصل إلى هذا القياس. لكنّنا نعرف اللّه من خلال أعماله وحكمته[١٠]. فالربّ نفسه قد علّمنا أنه لا يُمكن لأحد أن يعرف اللّه بدون أن يُعلِن اللّه له عن ذلك، أي أنّه لا يُمكن لأحد أن يعرف اللّه بدون اللّه، وهذه هي مشيئة الآب بشأن معرفته[١١]، وكما قال الربّ يسوع في إنجيل القديس لوقا: «وليس أحد يعرف من هو الابن إلاّ الآب ولا من هو الآب إلا الابن ومن أراد الابن أن يُعلِن له» (لو١٠: ٢٢).

لقد صارت معرفة اللّه مُمكنة من خلال تجسُّد الابن الوحيد، في شخص الربّ يسوع المسيح، إذ فيه: "اللّه غير المُدْرَك، يُعْلِن ذاته من خلال ما هو مُدْرَك، وغير المرئي من خلال المرئي. إنّ اللّه الآب الذي لا يُقاس أظهر ذاته ... في تجسُّد

---

[7] *Ibid*, 2.13.3-4;28.6;4.19.3.
[8] *Ibid*, 2.25.3-4;26.3;28.3.5.
[9] *Ibid*, 2.28.2,3,4.
[10] *Ibid*, 3.24.2;4.5.1.
[11] *Ibid*, 4.6.4.cf.4.20.7.

الابن، وهكذا دخل في مجال الذين يؤمنون. ففي الكلمة الذي صار جسدًا، أعلن الله عن ذاته"[١٢]. إنّ هذا يعني، أنّه عندما يتعرّف أحدٌ على الله في المسيح يسوع، فهو يعلم جيّدًا أن معرفته لله هي معرفة جزئيّة ونسبيّة وليست كاملة. معرفة الله الحقيقيّة ننالها في ابنه الكلمة غير المحدود[١٣].

إنّ المعرفة المحدودة للإنسان عن الله، في هذا العالم، تقع داخل نطاق وجود الإنسان المخلوق، ولكنّها معرفة الله الواحد الذي يُظْهِر ذاته للبشر، ولكنّه لا يحصر نفسه كُلّيًا ضمن حدود وقياسات الإدراك. لكن الآب يُستعْلَن من خلال الابن الكلمة الذي تجسَّد وصار مرئيًّا وملموسًا، فالابن هو صورة الآب غير المنظور (انظر: كو١: ١٥؛ في٢: ٦)[١٤].

٤. إنّ الطريقة الصحيحة لمعرفة الله مماثلة لمحبّته التي أظهرها ليكون معروفًا لنا. فمن خلال حُبّه لنا، اقترب الله منّا، ومن خلال الحبّ أيضًا نقترب منه، بدون أن نتجاوز حدود معرفتنا (الجزئيّة) له[١٥]. ففي حُبّه أرسل الله ابنه الوحيد مُتجسِّدًا من أجلنا، وأرسل إلينا روحه القدوس، فمن خلال الحُبّ نتبع الابن الكلمة، ومن خلال الاتحاد والشركة مع المسيح، بالروح القدس نرتفع إلى الآب، فالمسيح هو الذي يُعْلِن الآب[١٦].

وعلاوة على ذلك، ففي المسيح يسوع "اعتاد الروح القدس السكنى في المؤمنين" وأيضًا في المسيح "قد تعوّدت طبيعتنا أنْ تتقبّل الروح القدس". إنّنا، من خلال شركة الروح القدس والاتّحاد مع المسيح في الحبّ، نرتفع إلى معرفة الأشياء الموهوبة لنا من الله، التي هي أبعد من حدود طبيعتنا البشريّة. فلكي نعرف الله يجب علينا أن نتوافق معه وذلك يحدث عندما يكون لنا شركة مع المسيح بالروح القدس، لندخل إلى معرفة الآب، بالابن[١٧].

---

12 *Ibid*, 3.11.5; 4.4.2; 6.1-7; 20.1-11; 5.1.1.
13 *Ibid*, 2.6.6.
14 *Ibid*, 4.6.6,7; 9.2; cf.3.13.2; 4.6.3; 7.4; 16.5; 20.8-11.
15 *Ibid*, 2.26.1;cf.2.13.4; 4.12.2; 33.8.
16 *Ibid*, 4.20.1,4,5,7,11;cf.4.6.4.
17 *Ibid*, 3.17.1f; 4.6.2f,7; 14.1-2; 20.4-7.

من تلك المبادئ اللاّهوتيّة ـ السابق ذكرها ـ والتي اتّخذها القديس إيريناؤس من محتوى الأسفار، نجد أنه يواصل توضيح رؤيته المُتّزنة بشأن فهم وتفسير الأسفار المقدّسة، فيقول: "إنّ العقل الصحيح، والذي لا يتعرّض للمخاطر، مُكرّسًا للتقوى ومحبّة الحقّ، سوف يتأمّل بشغفٍ في تلك الأشياء التي وضعها الله تحت سلطة البشريّة، وأخضعها لمعرفتنا لنتقدّم فيها، لتصير معرفة تلك الأشياء ميسورة من خلال الدراسة اليوميّة. إنّ تلك الأشياء التي نلاحظها هي واضحة دون التباس في تعبيرات تظهر في الأسفار المُقدّسة."[١٨].

خطورة عدم تفسير الأسفار على أساس الحق:

لكي نصل إلى تفسير صحيح للأسفار المُقدسة، يجب علينا أن نأخذ نقطة البداية لا من الكلمات والتعبيرات بل من الحقّ نفسه، وهذا يعني أنّ الحق مُعلنًا وواضحًا "ومعروفًا بواسطة الكلّ"، ذلك هو الحقّ الذي يُنادي به القديس إيريناؤس والموجود داخل الكنيسة الجامعة والمُسلَّم، في كلّ مكانٍ، من الرسل. بدون تلك المعرفة الراسخة للحقّ التي نستند عليها تكون مناقشاتنا دون جدوى، لن تُفيدنا بشيءٍ[١٩].

ويوضِّح ذلك القديس إيريناؤس فيقول: "لا يوجد سؤال يُمكن إجابته بسؤالٍ آخر يحتاج إجابة. ولا في المنطق الصحيح، يمكن أن يُشرح أمرٌ غامض بواسطة أمرٍ آخر غامض، ولا لغز بواسطة لغزٍ آخر أعظم. ولكن بالأحرى نجد أنّ الأشياء من هذا النوع تكون إجابتها بحلولٍ ظاهرة ومُتماسكة وواضحةٍ"[٢٠]. ويكمل أيضًا: "لهذا لا يجب أن تُشرح الأمثال بعبارات غامضة. مَنْ يتبع هذا لن ينزلق في الخطأ، بل سيكون للكلِّ نفس الشروحات لتلك الأمثال عينها، والجسم كله (ما يُعلَّم به) سوف يستريح على الحقّ نفسه، وذلك بتوافقٍ مُتبادَل بدون أي تناقضٍ لأجزائه"[٢١].

---

[18] *Ibid*, 2.27.1.
[19] *Ibid*, 3.24.2.
[20] *Ibid*, 2.10.1.
[21] *Ibid*, 2.27.1.

ويُؤكد القديس إيريناؤس أنّه عندما لا نتّبع تلك الطريقة الصحيحة للتفسير، سيصبح التفسير وفقًا للأهواء الشخصيّة بدون أي قانون للحقّ، بل وستكون هناك معانٍ عديدة متضاربة من مُفسّرين عديدين. إنّ تلك الطريقة الخاطئة في التفسير ستتعارض بشدّة من طريقة التفسير الحقيقيّة والصحيحة[٢٢]. يُشبّه القديس إيريناؤس أصحاب طُرق التفسير المُنحَرِفة بالعذارى الخمس الجاهلات، في المثل المذكور، في إنجيل القديس متى، في الأصحاح الخامس والعشرين.

إنّ كلّ الأسفار المُقدّسة، النبويّة وكذلك الأناجيل، يُمكن أن تُفْهَم بوضوحٍ بغير غموضٍ، وبنفس الطريقة بواسطة الجميع، إذ يوجد معيار موضوعي متوفّر للكلّ. فالحق واضحٌ، وتعترف به العقول السليمة للمؤمنين. وأمّا الذين يغلقون عيونهم عمّا هو واضح ومُعْلَن، يضعون قيودًا على أنفسهم بعيدًا عن النور، ويُفكّرون في ظلامٍ، فالتفاسير والأمثال التي يُقدّمها الغنوسيّون هي عن إله من تخيُّل أذهانهم بل وخاصٌ بهم.

وأمّا ما قد قيل بصراحةٍ، وباعتراف الجميع، وبجلاءٍ، وبدون تناقضٍ عن اللّه الحقيقي، في الأسفار المقدسة، أعطاه الهراطقة معانٍ أخرى مختلفة تبعًا لتقليدهم الغامض السرّي للتفسير من خلال ألغاز وأمثال ومناقشات، زعموا أنّها تعود ليسوع ولبعض التلاميذ. وذلك يُناقِض ليس فقط قانون الحق ولكن أيضًا قانون الإيمان المُسلَّم علنًا من الرسل للكنيسة، باعتبار أنّه مُعترف به من الكل وفي كل زمانٍ، وبنفس الطريقة.

لهذا يستمر القديس إيريناؤس عبر كتابه "ضدّ الهرطقات" في تحطيم الفكرة بوجود تقليدٍ سريٍّ غامضٍ يستعمله الغنوسيّون كأساس ضروري لتفاسيرهم[٢٣]. ويُعبِّر عن ذلك القديس إيريناؤس أيضًا قائلاً: "الأمثلة، طبعًا، تفسح مجالاً للتفاسير، لكن مُحبّ الحق سوف لا يعترف بما يزعمونه من أن التساؤل عن اللّه يجب أن يبدأ من الألغاز والأمثال، ليهملوا ما هو مُؤكَّد وثابت

---

[22] *Ibid*, 2.27.2.
[23] *Ibid*, 3.praef, 1,2.

وحقيقيٌّ. إنّ هؤلاء قد ألقوا بأنفسهم في الخطر، إنّهم عديمو العقل، أليس هم مَنْ يبني على الرمل المُتحرِّك غير الثابت أكثر من على الصخر الثابت القوي الواضح"[٢٤] (انظر: مت ٧: ٢٥).

ويستكمل حديثه قائلاً: "إنّ الحقّ، عندنا، قانون وشهادة تختص بالله، موضوعة بوضوح، لذا لا يجب أن نطرح عنّا معرفة الله الحقيقيّة والثابتة، بالانحراف عن الطريق الصحيح، بالسعي وراء أجوبة لتساؤلات [فوق إدراك البشر] عديدة ومتنوّعة. وإنّه لمن المناسب جدًّا لنا أنّ نُدرِّب أنفسنا على البحث عنّ سرّ الله الحي وتدبيره، وأن نزيد في محبّة ذاك الذي صنع ومازال يصنع الكثير من العظائم من أجلنا، دون أن نسقط من الإيمان المُعْلَن بوضوح بأنّ هذا الكائن وحده هو الله والآب، الذي صنع هذا العالم، وجبل الإنسان، ومنح قدرة النمو لخليقته الخّاصة"[٢٥].

محدوديّة معرفتنا وإمكانيتنا البشريّة في الإدراك:

يجب ألاّ نتجاوز حدود معرفتنا، إذ أنْ معرفتنا لله جزئيّة. فقد لا نجد إجابة عن بعض تساؤلاتنا، في الأسفار المقدسة، لأنّها عند الله وحده. إنّ الخليقة متنوعة، والله وحده يُعْلِن حقيقتها، كذلك نجد العديد من الأمور في الأسفار المُقدسة، يجب أن نتركها بين يديه. ليس فقط في العالم الحاضر بل وأيضًا في العالم الآتي، حيث إنّ معرفة الله ستظل دائمًا نبعٌ لا ينضُب.

"لا شك في أنّ الأسفار المقدسة نفسها كاملة، بسبب أنّها قيلت بواسطة كلمة الله وروحه، لكنّنا، الذين نطلب تفسيرها، أقل جدًّا (كبشرٍ) بالنسبة للكلمة والروح، إلى الدرجة أنّ معرفتنا سوف تظل قاصرة أمام أسرار الله. إذ يوجد الكثير في هذا العالم، بل وحتى تحت أقدامنا ما يتجاوز معرفتنا، فكم بالحري في حالة الأشياء الروحيّة والإلهيّة التي يُمْكِن أنْ نعرفها فقط، بالإعلان الإلهي؟"[٢٦].

---

[24] *Ibid*, 2.27.3.
[25] *Ibid*, 2.28.1.
[26] *Ibid*, 2.28.2.

اللّه يفوق ويسمو عن كلّ معارفنا عنه، لذا يؤكّد القديس إيريناؤس على أنّه في تفسير الأسفار المُقدسة يجب أنْ نترك مكانًا لعظمة وسرّ اللّه، ونُحافِظ على حدود معرفتنا، ونضع ذلك في الاعتبار عند تفسيرنا للأسفار، ولو لم نكن واعين بذلك سوف نسقط في الاختلاق.

وتبعًا لذلك، فنحن نوقّر المرجعيّة الواضحة للأسفار المُقدسة عن اللّه ونترك للّه الأسئلة التي هي أبعد من حدودنا، حينئذ سوف نحفظ إيماننا ولن يكون هناك احتماليّة للخطأ في التفسير؛ فالأسفار المقُدسة التي أُعطيت لنا من اللّه سنرى ثباتها، والأمثال سوف تكون متوافقة مع ما هو مُعطَى بصفةٍ مباشرةٍ، ومع ما هو حديث مباشر، ومع ما قد تقرّر ببساطةٍ ووضوحٍ، وسوف يفيد ذلك في شرح هذه الأمثال، وهكذا من خلال مجموعة كبيرة من التعبيرات، سوف نسمع موضوعًا واحدًا مُتجانسًا، كتسبيح للّه الذي خلق كل الأشياء[٢٧].

ومن الناحية الأخرى، لو لم ندع مجالاً للّه فيما يفوق إدراكنا، ولم نوقّر العبارات الكتابية المُتناظرة بشأن سمو اللّه، فسوف يخلع الناس أفكارهم البشريّة على اللّه، ويفهمونه كأنّه كائنٌ مُركّبٌ له نفس تفكيرهم النفسي، كباقي البشر، حينئذ سيصل بهم الأمر إلى السقوط في الخرافات مثل الوثنيين والغنوسيّين.

لذا يجب علينا أن نحجم عن محاولة البحث في أعماق اللّه، وعن التجرُّؤ في فحص طبيعته السامية، وإلاّ سوف ننحرف إلى افتراضاتٍ لا نهاية لها، وسوف نفترض أنظمةً وأساطيرَ هي من ابتكارنا. ولكن بالأحرى علينا أن ندرك معرفتنا الجزئيّة المحدودة، وضمن هذ الحدود نُفسِّر الأسفار المُقدَّسة، دون أن نُقدِّم تفسيرات افتراضيّة ودون طلب معرفةٍ كاملةٍ تفوق حدودنا[٢٨].

---

[27] *Ibid*, 2.28.3.
[28] *Ibid*, 2.28.7-9

وحدة التدبير الإلهي:

القارئ للجزء الثاني من كتاب "ضدّ الهرطقات" للقديس إيريناؤس، يرى تأكيده على وحدة التدبير الإلهي، وفي نفس الوقت رفضه للفصل والتفريق الغنوسي بين اللّه الفادي واللّه الخالق، وذلك لأنّ الفصل وعدم الربط بين الفداء والخلق يجعل الذي يُفسِّر الأسفار ينزع إلى عالم الأوهام والخيال من خلال العالم المادي والمرئي الذي نوجد فيه. فاللّه وحده هو الذي افتدانا وهو أيضًا الذي خلقنا ويحفظ وجودنا المخلوق. هو نفسه قد تعامل معنا في الخلق والفداء ويبقى متّجهًا نحونا في تجديده للخليقة. إنّه أزلي أبدي. والكلمة الذي هو ابن اللّه، هو العامل في الخلق والفداء وهو وحده يُعْلِن الآب، وهو الكائن الأزلي مع الآب، هو إلهٌ من إله، نورٌ منذ الأزل[٢٩].

لهذا يرفض القديس إيريناؤس أي طريقة تفسير لا تعتمد على الإعلان الإلهي المُدَّون في الأسفار المُقدّسة، وإلاّ سوف يصل الأمر إلى ظهور تساؤلات عن وجود إله آخر غير اللّه الحقيقي[٣٠]. ويُقدِّم القديس إيريناؤس رؤيته لتفسير وفهم الأسفار في كتابة "ضدّ الهرطقات" ويُمكن تصوُّر تلك الرؤية من خلال ثلاثة مبادئ أساسيّة، كالتالي:

أ. قانون الحق:

في استعمال القديس إيريناؤس لكلمة قانون *κανών*، كان في ذهنه العمود المُستقيم الذي يستعمله النجّارون والبنّاؤون معًا ليحفظوا الأشياء مستقيمة ويقيسوها. وهذا العمود ليس مثل العمود الذي ذكره أرسطو، المُصمَّم والمصنوع

---

[29] *Ibid*, 2.13.8;25.3; 30.9; 3.11.8; 4.20.3.

وجدير بالذكر، أن القارئ لكتاب "تجسد الكلمة" للبابا أثناسيوس الرسولي يلمح نفس رؤية القديس إيريناؤس بشأن وحدة التدبير الإلهي والربط بين الخلق والفداء وتجديد الخليقة، حيث يبدأ القديس أثناسيوس حديثه عن الخلق ومحبة الله ثم السقوط ثم تجسُّد ابن الله والفداء. انظر: تجسد الكلمة، البابا أثناسيوس الرسولي، ترجمة د/ جوزيف موريس، المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية، القاهرة ٢٠٠٢م. وكذلك نجد نفس الرؤية والربط بين الخلق والفداء من خلال عبارات قداس المؤمنين، للقديس باسيليوس الكبير في صلاة الصلح وصلاة قدوس قدوس الذي جبلنا وخلقنا.

انظر: قداس القديس باسيليوس الكبير، الخولاجي المقدس للقداسات الثلاثة، إصدار دير البراموس، ط ٣، ٢٠٠٢. وهذا يظهر مدى التزام وأمانة آباء الكنيسة الأولى للتقليد الكنسي والآبائي السابق لهم.

[30] *Ibid*, 2. 28.8.

من الرصاص ويمكن ثنيه ليتوافق مع المنحنيات الخاصة بقالبٍ ما[٣١]. أمّا قانون الحقّ ὁ κανών τῆς ἀληθείας فهو صلبٌ لا ينثني ἀκλινής ثابت ولا يمكن أن يتغيَّر بحسب مختلف الظروف ولا أن يُعدَّل ليناسب أفكار الناس[٣٢]. ويستخدم القديس إيريناؤس لفظ "قانون الحقّ" ليشير إلى معنيين:

أولاً: إلى الحقّ نفسه وماذا يكون هو فعلاً، وأن هذا الحقّ معروف كما هو، تبعًا لطبيعته وكما هو دائمًا.

ثانيًا: أن الحقّ يصبح مساوٍ "لقانون الإيمان" كما هو مُسلَّم في المعمودية، لذا المعنى الأساسي لقانون الحقّ يشير إلى الحقّ نفسه في برهانه الذاتي بوصفه مبدأ لايتغيّر لتمييزنا لما هو حقيقي[٣٣].

وهذا الحقّ يضطرنا إلى الموافقة والاعتراف به لأنه حق، ولكنه لا يُجبرنا على ذلك ضدّ إرادتنا ولا يستعبدنا بالضرورة. لهذا فإن معرفة القديس إيريناؤس للحقّ مرتبطة بمعرفته لله الكائن فعلاً، والخالق لكلّ الأشياء الكائنة فعلاً، والفاعل في فدائنا وخلاصنا وتجديدنا[٣٤]. وهذا الحقّ هو الذي نتقابل معه في الأسفار المقدسة التي فيها يُظهر الله بوضوح شهادته، التي يُمكن أن يعرفها الكلّ.

ومثل هذا الحقّ يصبح وسيلة دينونة، لخلاص المؤمنين وهلاك غير المؤمنين (انظر: يو٣: ١٩) والتفاعل مع الحقّ لا يُغيّره، فهو قانون غير مُتغيِّر وثابت دائمًا وأبدًا، ونحن الذين نطيعه، لأن الله هو الذي خلقنا. ونور الحقّ لا يخفت حتى عندما يُعمِي الناس أنفسهم عن رؤيته، ولكنه يبقَى كما هو دائمًا وأبدًا، فمشكلة هؤلاء الناس أنهم لم يروا وبمحض إرادتهم[٣٥].

---

[31] Aristotle, *Ethica Nicomachea* 5.10.7, 1137b.
[32] Irenaeus, *op. cit.*, 1.9.4.
[33] *Ibid*, praef. 1,2.
[34] *Ibid*, 2.28.2-7; cf. 3.13.2; 4.11.3.
[35] *Ibid*, 2.28.1; 4.6.7; 39.2-3.

وهكذا الله نفسه يهب استنارة أعظم وأكمل لعقول أولئك الذين يؤمنون به ويتبعونه، ويحجب الاستنارة والبصيرة عن أولئك الذين لا يؤمنون ويرفضونه[٣٦]. لذا لو أتينا إلى الأسفار المقدّسة بذهنٍ صحيحٍ[٣٧] وبدن قصدٍ فاسدٍ، ويكون لنا الحقّ بوصفه قانونًا لنا، حينئذ نستطيع أن نُميِّز الحق من الباطل في العديد من التفسيرات المتعارضة المُقدّمة لعبارات من الأسفار، شرط أن يسمح الشخص لنفسه أن يقوده الحقّ الإلهي والبرهان الذاتي الذي هو دائمًا كما هو[٣٨].

قانون الحقّ هو كلمة الله، وقد أوحى بها الروح القدس، روح الحقّ، للأنبياء والرسل فدوّنوها في الأسفار المقدسة[٣٩]. فقد أُرسل إلينا الحقّ في عبارات واضحة غير غامضة، وفي حديثٍ صريحٍ. على سبيل المثال، القديس يوحنا الحبيب قد دوَّن لنا كلمات الرب التي قد علَّمها عن الآب في إنجيله، ليس من خلال أمثال لكن من خلال حديث صريح[٤٠] (انظر يو ١٦: ٢٥).

وكذلك عندما علَّم الرب التلاميذ لم يوجِّههم وفقًا لأرائهم السابقة، ولم يكن يُجيب عليهم طبقًا لافتراضات سائليه، لكن طبقًا لعقيدة الخلاص، بدون رياء أو محاباة لأحد[٤١].

فالربّ هو الحقّ، فهو القائل: «أنا هو الطريق والحق والحياة» (يو ١٤: ٦)، وأيضًا التلاميذ كانوا تلاميذ الحقّ وكانوا فوق كلّ زيفٍ. لذا يوضِّح القديس إيريناؤس أنّ الرسل أنفسهم كانوا أُمناء وكانوا مُنقادين بقانون الحقّ، لذا كرازتهم بالمسيح لم تكن دعوة من لدنهم[٤٢]. وهكذا فقانون الحقّ مُنغرس داخل الأسفار نفسها وهو واضحٌ في تناسقها وترابطها الداخلي وثباتها.

---

[36] *Ibid*, 4.29.1-2; 39.3.
[37] *Ibid*, 2.27.1f , 35.4.
[38] *Ibid*, 1.10.4; 2.28.1f; 4.35.1-4.
[39] *Ibid*, 4.35.2,4.
[40] *Ibid*, 4.41.4.
[41] *Ibid*, 3.5.1-2; 12.6;13.2;24.1.
[42] *Ibid*,1.10.1f; 11.1; 12.1-6, 11-15.

ب. النظام (الترتيب) والترابط:

يعطي القديس إيريناؤس أهميّة خاصة للتسلسل والمكانة الواضحة للأشياء في الزمان والمكان، وكذلك للغاية الإلهيّة وتدبير الله في الخلق والفداء، وكلّ هذا قد انعكس على طريقة القديس إيريناؤس في تفسير الأسفار وشرحه للعقيدة. والقارئ لكتابات القديس إيريناؤس عن قانون الحقّ، يُلاحظ الفهم المُنظّم والمُؤسَّس على الترتيب المُتأصِّل، والترابط الواضح، في الأسفار المُقدّسة.

إلى جانب استخدام القديس إيريناؤس لتعبير "قانون الحق" يستخدم أيضًا "جسم الحقيقة *ἀληθείας σωμάτιον*" ويعني الترابط العضوي للأسفار لمعرفة الحقّ الذي فيها استنادًا إلى قانون الحقّ، حينئذ كلّ من الأسماء والتعبيرات والأمثال المأخوذة من الأسفار، تكون كلها في مكانها الصحيح[٤٣].

فمن الضروري أن نُظهر ذلك الترابط الداخلي في الأسفار لنصل إلى تفسير سليم، بينما الهراطقة قد مزّقوا بعنفٍ، العبارات الكتابيّة، مُخرجين إياها خارج سياقها، مُتغاضين عن نظام وترابط الأسفار *τήν τάξιν καί εἰρμόν τῶν γραφῶν*. وهكذا يمزقون ويقطعون أوصال الحقّ بينما يُكيِّفون ما يلتقطونه من الأسفار مع خيالهم الذي بلا أساس[٤٤].

ولكن ما قد كرز به الرسل القدّيسون والكنيسة الأولى كان له ثبات داخلي نابع من الحقّ الذي يكرزون به، بهذا سُميت كرازتهم "كرازة الحق" *τό κήρυγμα τῆς ἀληθείας* التي تشع في كلّ مكان وتُنير على كل الذين يُريدون أن يأتوا إلى معرفة الحقّ[٤٥].

الترتيب والترابط في الأسفار موجود في الكلمات ويسير بصورة أعمق في الأحداث والوقائع التي تدلّ عليها، لغرضٍ خاصٍ بالعناية الإلهيّة وعمل الله الخلاصي. فليس هناك شيء بلا معنى أو صدفة عند الله في الخلق والتاريخ[٤٦].

---

[43] *Ibid*, 1.9.4; 2.27.1.
[44] *Ibid*, 1.8.1-2; cf.1.9.2, 3, 4.
[45] *Ibid*, 1.10.2.
[46] *Ibid*, 2.25.1; 4.15.2; 18-1; 21.3.

فالله يحقّق كلّ الأشياء بمقياسٍ وترتيبٍ[٤٧]، فيقول القديس إيريناؤس: "كما عند الآب، ليس شيء بلا تماسك، وهكذا عند الابن ليس شيء غير كامل أو بلا ميعاد. ولأنّ كلّ الأشياء معروفة مُسبقًا بواسطة الآب، وبينما تأخذ كمالها بالابن في تسلسل منُظَّم مُتماسك وفي الوقت المُناسب"[٤٨].

ويستطرد أيضًا قائلاً: "فالابن يُعلن الآب من البدء، حيث إنه مع الآب منذ الأزل، وأيضًا قد أظهر للجنس البشري رؤىً نبويّة وقدّم هبات عديدة، وأظهر رعايته ومجد الآب، في تسلسل منظّم وترابط، في الزمان، المُناسب لفائدة البشر. فحيثما يوجد التسلسل المُرتّب *ἀκολουθία*، يوجد الثبات *εὐστάθεια* وحيثما يوجد الثبات، يوجد الوقت المناسب، وحيثما يوجد الوقت المناسب يوجد أيضًا النفع"[٤٩].

هذا يعني أن التفسير يجب أنّ يتخلّل نصوص الأسفار ويصل إلى الأمثلة الواقعيّة للأحداث الخلاصيّة كما هو مُعْلَن في العهد القديم والجديد ويُبيّن كيف أنّ الأجزاء العديدة والعبارات تُشير إلى، وتُعلن، التتابع الداخلي والغاية من أعمال الله. وكذلك يأخذنا بعمقٍ إلى داخل الإنجيل، إلى العمل المُتوافِق للآب والابن والروح القدس، وكذلك إلى الارتباط بين الخلق والفداء المُمتدُّ خلال التاريخ كلّه من البدء حتى الاكتمال النهائي[٥٠].

وذلك هو ما يقوم عليه الإيمان *ἡ ὑπόθεσις τῆς πίστεως* حيث إنّ الإيمان لا يُمكن أن يتغيّر، لأنه يبقَى واحدًا، دائمًا وأبدًا كما هو، ويجب أن يأتي إلى العلن من أجل فهم وتفسير الأسفار المقدّسة بطريقة صحيحة وطبقًا لقانون الحق.

وعلى أساس ذلك، يُمكن فهم عمل الله وغايته في الخلق، وكذلك تدبيره وعمله الخلاصي الذي قدّمه للبشريّة بعد السقوط في العصيان وانحدار البشريّة للموت. وإنّه بالرغم من أنّ الله غير مرئي، فقد أعلن عن نفسه بالأنبياء قديمًا،

---

[47] *Ibid*, 4.4.2.
[48] *Ibid*, 3.16.7.
[49] *Ibid*, 4.20.7.
[50] *Ibid*, 4.38.3.

وأنّ كمال الإعلان الإلهي كان في تجسُّد الابن الكلمة، وذلك قد حدث في ملء الزمان (انظر: غل ٤: ٤)، حيث إنّ البداية قد أُعْلِنَت في النهاية *ἐν τῷ τέλει ἡ ἀρχη ἐφάνη* وقد فتح الله باب الخلاص للأمم ـ الذين فقدوا رجاءهم للخلاص ـ لكي ينالوا خلاصًا، دامجًا إياهم في نفس الجسد وقد جعلهم أحبّاء وورثة وشركاء مع القدّيسين (انظر: رو ١١؛ أف٢).

ونفهم أيضًا لماذا أنّ هذا المائت يجب أن يلبس عدم موت وهذا الفاسد عدم الفساد (انظر: ١كو ١٥)[٥١]. ويُشير القديس إيريناؤس إلى الترتيب المنظّم لتدبير الله المُحْكَم والفائق للأحداث في كلّ مسار التاريخ البشري من البدء حتى نهاية الزمان، حيث كان الله عاملاً بابنه الكلمة في اكتمال الهدف الإلهي في الخلق والفداء، كما نُصلّي في التسبحة "لأنه بإرادته ومسرّة أبيه والروح القدس أتى وخلّصنا".

ويرفض القديس إيريناؤس مزاعم الهراطقة الغنوسيين، الذين تخيّلوا نشاطًا إلهيًّا في عالمنا كمجرّد جهاز مؤقّت لينجز نهاية ما[٥٢]. وفي نفس الوقت يؤكّد القديس إيريناؤس على الإيمان بعمل الله التدبيري الواحد، حيث فيه يرتبط معًا كلّ من الخلق والفداء وتجديد الخليقة، في تحقيق نهائي للإرادة الإلهيّة داخل الخليقة الجديدة المُجتمعة معًا والمُتمركزة في الابن المُتجسّد. وهذا التدبير الإلهي يأخذ إطار رعاية تدبيريّة داخل حدود الوجود والتاريخ الإنساني، الذي يدعوه القديس إيريناؤس بالعهديْن؛ القديم والجديد، حيث إنّ كلّ الأشياء قد اجتمعت معًا، بواسطة الإنجيل، في المسيح، حاملاً البشر المؤمنين إلى ملكوت الله[٥٣].

وكلٌّ من العهدين متناسقين ومترابطين معًا[٥٤]، والتمايز بينهما ليس فقط من التتابع الزمني من عهدٍ لآخر، ولكن في العهد الجديد كلّ الأشياء قد صارت جديدة من خلال مجيء المسيح كلمة الله بالجسد[٥٥]. فكل عهد له

---

[51] *Ibid*, 1.10.3.
[52] *Ibid*,1.6.1; 9.2,3; 15.3; 3.10.3,8.
[53] *Ibid*, 3.11.8.
[54] *Ibid*, 3.12.2.
[55] *Ibid*, 3.10.2; 12.5,11,14; 17.2; 4.4.2.

شكله الخاص، الأول ناموسي، والآخر إنجيلي، والأخير قد تحقّق في ملء الزمان لأجل خلاص البشر[٥٦].

وأيضًا في العهد الجديد، قد أُعْلِنَ النموذج الأصلي للأحداث، وكذلك قصد اللّه الأبدي الذي كان مُحتجبًا قبل الدهور قد ظهر في تجسُّد الابن الوحيد، الذي منه قد ظهر سرّ اللّه، وكلّ الأشياء قد اجتمعت في الرأس (المسيح)[٥٧] (انظر: أف ١: ٩).

ويفهم القديس إيريناؤس أحداث حياة الربّ يسوع بالجسد، من الميلاد للصليب والقيامة، حيث تظهر ذروة أعمال اللّه الخلاصيّة، ضمن تدبير اللّه العام. لذا يستخدم القديس إيريناؤس تعبير ἀνακεφαλαίωσις *recapitulation* وهو يعني "إعادة جمع الأشياء معًا تحت رأسٍ واحدٍ مرّة أخرى"، حيث يطبّقه على كلّ ما حدث في حياة المسيح ابن اللّه، وكذلك ما حقّقه اللّه فيه (في المسيح) كتحقيق لخطّته الخلاصيّة في الخليقة[٥٨].

ويقصد أيضًا القديس إيريناؤس بمصطلح إعادة الجمع، بأنّ عمل اللّه الخلاصي في المسيح يسوع ليس مجرّد عملٍ سامٍ قد لمس وجودنا في المكان والزمان، بل أيضًا هو عملٌ قد دخل في صميم وجودنا وله فعل داخلنا، مُستعيدًا الخليقة الأصليّة من الموت والفساد ومُجدِّدًا إياها بحسب التدبير الإلهي، لتَصِل إلى الاكتمال كخليقة جديدة، حيث كلّ الأشياء قد اجتمعت معًا، وبذلك ربط النهاية بالبداية. فاستمرار الوجود كلّه يعتمد على إعادة الجمع ἀνακεφαλαίωσις حيث إنه استحضار للماضي في غلبةٍ على الشرِّ، وأيضًا تأثير مُسبق على المستقبل مُستعيدًا الخليقة إلى هدفها الحقيقي والأصلي، مُعطيًا الاتّجاه السليم والوحدة للتاريخ.

---

[56] *Ibid*,3.12.11.

[٥٧] انظر: خلق الإنسان على صورة الله ومثاله عند القديس إيريناؤس أسقف ليون، *في مجلة مدرسة الإسكندرية*، السنة الثانية، العدد الأول، (كنيسة مارجرجس سبورتنج: الإسكندرية، ٢٠١٠م).

[58] *Adv. Hear*. 3.16.6f; 4.38.1; 40.3; 5.20.2.

وحيث إنّ كلّ الأشياء قد اجتمعت معًا وتمركزت في يسوع المسيح، فهو المحور المركزي لمرجعيّة فهم الكرازة المسيحيّة *τό κήρυγμα*. ولكن ذلك المحور المركزي يجب أن يُفْهَم في علاقته بكلّ من عمل الله السامي، وتتابع وتسلسل التاريخ، أي في علاقته بنزول وصعود ابن الله المُتجسِّد وكذلك مجيئه الأوّل والثاني.

ففي تجسُّد الابن، نزل الله إلينا ليدخل إلى داخل أحزاننا وآلامنا ليُخلِّصنا، وفي صعود الابن قد أصعدنا معه إلى الآب «وأقامنا معه وأجلسنا معه في السماويات في المسيح يسوع» (أف ٢: ٦)، حتى من خلال الوحدة والشركة مع المسيح والروح ندخل إلى معرفة الثالوث الأقدس الحقيقيّة[٥٩].

في المجيء الأول لابن الله إلى العالم متجسّدًا، جاء في إخلاء وطاعة، وقَبِلَ الآلام ليصالحنا مع الله (انظر: ٢كو٥: ١٨)، ولكن في مجيئه الثاني سوف يأتي مرّة أخرى بنفس الجسد الذي تألّم به ليُعلِن مجد الآب وليُحضر كلّ الأشياء إلى كمالها مُقيمًا ومجدّدًا البشر المؤمنين[٦٠].

هذا يعني أن بين المجيء الأوّل والثاني للربّ يسوع المسيح، توجد الكنيسة المسيحيّة، وهي تسير خلال العالم في حالة عبور، كما كان شعب الله في العهد القديم، تابعة للابن الكلمة الذي يعيد جمع كلّ الأشياء معًا إلى واحدٍ، ويُعْلِن للبشر عن تدبير الآب[٦١].

وهكذا يجعل القديس إيريناؤس التجسُّد مفتاحًا لتفسير تاريخ الخليقة والفداء، وبالتالي مفتاحًا لتفسير الأسفار المُقدَّسة. فالتتابع الضروري وترابط الأشياء يكون مُنجمعًا في المسيح يسوع، والمسيح هو المرجع الأساس الذي من خلاله نفهم التدبير الإلهي للخليقة في العهدين بطريقة صحيحة، وكذا الترابط بين أسفار الأنبياء في العهد القديم وأسفار الرسل والإنجيل في العهدالجديد[٦٢].

---

[59] *Ibid*,. 3.6.2; 17.1,4,18.2,3; 4.12.4.
[60] *Ibid*, 1.10.1-3; 3.4.2; 16.3-9; 4.22.2; 4.27.2.
[61] *Ibid*, 4.20.11f, 21.1f.
[62] *Ibid*, 3.12.14; 17.2; 4.33.14.

فحتى أسفار العهد القديم يجب أن تُقرأ في ضوء مجيء المسيح ابن الله في الجسد، لأن مجيئه ربط البداية بالنهاية، وجعل البداية نبوءة عن النهاية، وهكذا مُبيّنًا أنّ إيمان البطاركة الأوائل والأنبياء والرسل هو واحدٌ وكما هو. وهم قد بذروا البذور في العهد القديم، أي كلماتٍ عن مجيء المسيح بالجسد، وأنّه في العهد الجديد أصبحت فاكهة ناضجة، وفقط في الكنيسة تكون حقيقة الأشياء التي صُوِّرت مسبقًا قبل حدوثها، قد صارت واقعة[٦٣].

فهناك حقائق معيّنة قد أعُلنت مسبقًا بواسطة الآباء في العهد القديم بشكلٍ أبويٍّ، وحقائق أخرى صُوّرت قبل حدوثها بواسطة الأنبياء في شكلٍ ناموسيٍّ، وحقائق أخرى تصف شخص المسيح بواسطة الرسل الذين عاينوه وقد قَبِلوا التبنّي، حيث إنه في الله الواحد كلّ الأشياء تظهر للنور[٦٤].

وهكذا لو أن شخصًا قد قرأ الأسفار بانتباهٍ، فسيجد فيها كلمات عن المسيح المتجسِّد وتصوّر مُسبَق عن دعوة جديدة[٦٥]. فالمسيح كان، كما هو، كالكنز المخفي في الحقل، ولا يزال مخفيًّا في العالم والأسفار، حيث قد أُشير إليه "بواسطة الرموز والأمثال" *διὰ τύπων καί παραβολῶν* إلى طبيعته الإنسانيّة، حيث لم يكن ممكنًا أن يُلْمَس، بوصفه ابن الله، قبل مجيئه الأوّل (تجسُّده). ويشرح ذلك القديس إيريناؤس قائلاً: "كلّ نبوّة قبل تحقيقها تكون للناس مثل لغزٍ، غامضة، لحين مجيء الوقت المحُدّد حيث يتحقّق ما أُنْبِئ به، وحينئذ نجد تفسيرًا صحيحًا.

لذلك فعندما يقرأ اليهود الناموس في الوقت الحاضر يرونه كأسطورةٍ، لا يملكون المفتاح التفسيري لكلّ هذه الأشياء (لعدم إيمانهم بالمسيح المُتجسِّد)، الذي هو استعلان *παρουσία* ابن الله من السماء. وعندما تُقرأ (النبوّات) بواسطة المسيحيّين فإنّها حقًّا كنزٌ مخفيٌّ في حقلٍ ولكن قد اُستُعْلِنت وشُرحت بصليب المسيح. ليس فقط أنها تعلن حكمة الله وتُغني فهم البشر، لكنها أيضًا

---

63 *Ibid*, 4.7.2; 20.7-12; 21.1-3; 22.1-2; 23.1-2.
64 *Ibid*, 4.25.3; 28.1.
65 *Ibid*, 4.26.1.

تكشف عن المنظور الأُخروي الذي يتمّ بمجيء المسيح والميراث المستقبلي (الأبدي) للذين يُحبّون الله ويرتقون إلى رؤية الله وإلى سماع كلماته"[٦٦].

ج. قانون الإيمان:

الحقُّ ليس فقط ما هو مُبرهن في ذاته، ولكن أيضًا ما يجب أن يعترف به الناس، وتبعًا لطبيعته الخاصّة. وقانون الإيمان مثل الحقّ يُميَّز وُيعترَف به، ويتقبّل شهادةً من الناس به، لذلك فإنّه يعمل كمثل أداة للحكم، لإظهار ما هو زائف وتثبيت ما هو حقيقي تبعًا له[٦٧]. لذا قانون الحق يشمل قانون الإيمان وأيضًا لا يمكن تمييزه عنه، حيث إنهما وجهان لعملة واحدة. فكلمات الربّ يُمكن التكلُّم بها كقانون الحقّ، لأنّ كلمةَ الله المسموعة فيهم، دائمًا تكون كما هي، وذلك ما أوحى به الروح الحقّ، وأيضًا بالتساوي، كلمات الربّ التي سُلِّمت وفُهِمَت واستقرّت بكتابتها بواسطة الرسل في الأسفار المقدّسة يمكن التكلُّم بها كقانون الحقّ[٦٨].

فقانون الإيمان، بصورة أكثر دقة، هو تعبير موجز للإيمان، والكرازة بالحقّ، حيث إنّ قانون الحقّ هو قانون الإيمان، الذي يُسلَّم في المعموديّة ويُستخدَم عمومًا داخل الكنيسة التي تتبع التسليم الرسولي كمعيار لتفسير الأسفار المُقدّسة ولتمييز العقيدة الصحيحة الصلبة من البدع الزائفة[٦٩].

والارتباط بين قانون الإيمان وقانون الحقّ هامٌ، بسبب أنه يعني أنّ قانون الإيمان ليس مجرّد موجزًا رسميًّا للعقيدة المنحدرة من التقليد الكنسي، بل وأيضًا هو الذي فُرِضَ على الكنيسة بواسطة الحقّ نفسه، كما أنّ له شرعيّة عموميّة وموضوعيّة. ومن الناحية الأخرى، بسبب أنّ هذه هي الطريقة التي يعمل بها الحق في الناس، وهي واحدة ومعروفة بصورة عامّة، في كل مكانٍ وزمانٍ،

---

66 *Ibid*, 4.26.1; cf.1.10.1.
67 *Ibid*, 4.6.7.
68 *Ibid,* 4.35.1-4.
69 *Ibid,* 1.9.4,5. See also the Dem.1-8.

وهي مُستمدّة من الحقّ وتتأصّل في الطبيعة الحقيقيّة للأشياء، في كلمات وأعمال الله[٧٠].

إنّ تعاليم الهراطقة متناقضة دائمًا مع بعضها البعض، بينما كرازة الكنيسة كما هي في كلّ مكانٍ، والحقّ الذي تكرز به الكنيسة ثابت[٧١] وذلك لأنّ الحقّ دائمًا واحد وكما هو، وأيضًا الإيمان هو دائمًا واحد وكما هو[٧٢]. وطالما أنّ قانون الإيمان هو قانون الحقّ، لذا يرى القديس إيريناؤس أنّ ذلك قد أُعطي للكنيسة من الروح القدس[٧٣]، بواسطة الرسل الذين صاغوه وسلّموه للكنيسة حيث كان الرسل يعملون تحت قيادة الروح القدس[٧٤].

وتنظر الكنيسة باستمرار إلى هذا المصدر ثنائي الوجه (أي قانون الحقّ وقانون الإيمان)، بوصفه معيارها وقانونها الثابت، وهو يُعدُّ وديعة غالية قد أودعها الله في الكنيسة بروحه القدّوس، لتحيا الكنيسة في الحقّ بالإيمان المستقيم. ويؤكّد ذلك القديس إيريناؤس فيقول: "حيثما توجد الكنيسة، يوجد روح الله، وحيثما يوجد روح الله توجد الكنيسة وكلّ نوعٍ من النعمة، وأيضًا الروح هو حقٌّ" (روح الحق، انظر: يو ١٥، ١٦)[٧٥].

والذي يفكّر في داخل مجال هذا الحق فإنه سوف يجد كلّ شيءٍ ثابتًا. وفي ذلك يقول القديس إيريناؤس: "فهو له الإيمان الصحيح بالله الواحد كلّي القدرة، الذي له كلّ الأشياء، وبابن الله يسوع المسيح الذي به كلّ الأشياء كائنة (انظر: كو ١: ١٦) وبتدابيره التي من خلالها ابن الله صار إنسانًا، وله الإيمان الجادّ بروح الله الذي يُعطينا معرفة الحقّ، وهو الذي يكشف تدابير الآب والابن ويسكن في بني البشر حسب إرادة الآب"[٧٦].

---

[70] *Ibid,* 2.9.1;27.1-3; 28.1-9; 3.24.1-2.
[71] *Ibid,* 1.9.5; 10.1-3; cf.3.24.1; 5.20.1-2.
[72] *Ibid,* 1.10.2.
[73] *Ibid,* 3.4.1f; 21.4; 24.1; 4.33.7,15; 35.2.
[74] *Ibid,* 2.35.4.
[75] *Ibid,* 3.24.1.
[76] *Ibid,* 4.33.7.

ولكن الغنوسيين قد صاغوا عقائدهم الخاصّة، مُحتكمين إلى تقليدٍ خفيٍّ وتفسيرٍ غير مكتوب، يشمل أسفارًا مزيّفة، حيث قاموا بمحاكاة الأناجيل والرسل وقد شوّهوا كلّ شيءٍ بإنكارهم حقيقة الكرازة المسيحيّة[٧٧]. هذا ما جعل القديس إيريناؤس يرفض أفكار الغنوسيّين وتقليدهم الخفي، ويُقرُّ بعقيدة الكنيسة الصحيحة بشأن التقليد الرسولي، حيث تُعَلِّم العقيدة المستقيمة في الكنيسة ببساطة ووضوح وهي دائمًا متواصلة[٧٨].

فالإيمان الذي تسلّمته الكنيسة من الرسل، واضح وجّاد، ولا يوجد فيه شيءٌ غامضٌ أو مُحتجبٌ، فلا يقال شيءٌ للخاصّة وأشياء أخرى للعامّة[٧٩].

وما عمله القديس إيريناؤس، أنه قد اتّبع أثر الكرازة والتعليم الكنسي وكلّ جوانبه الرئيسيّة ومصادره العامّة في التقليد الرسولي، ليُظْهِر أنّ الكرازة والتعليم المسيحي قد انحدر إلينا بواسطة الرُّسل في الأناجيل والرسائل مع سفر الأعمال والرؤيا وهو مُؤسَّس في كلمات الربّ الذي هو يسوع المسيح نفسه الذي هو الحقّ، وأنّ ما قد عرفه الرّسل قد سلّموه للذين قد أودعوه الكنائس التي قد أسَّسوها[٨٠].

وفي نفس الوقت، أظهر القديس إيريناؤس أنّ استمراريّة وعموميّة الكرازة والتعليم الكنسي في العصور المُبكِّرة يوافق طبيعة الحقّ الذي دائمًا كما هو، ويُعْتَرَف به دائمًا كما هو بواسطة العقول السليمة، لذا فهمه يظل ثابتًا ولا يتغيّر بالوقت، وصياغته تُظْهِر في كلّ مكانٍ وحدةً ضروريّة[٨١]. هذا هو: "التسليم الرسولي القديم، وتسليم الحقّ، حيث إنّنا نؤمن أنه قد انحدر إلينا في الأسفار ليكون الدّعامة والأساس لإيماننا"[٨٢]. وخلال هذا الحوار يُقدِّم القديس

---

77 *Ibid,* 1.20.1; 3.1; 11.3,7,9; 12.1,2.
78 *Ibid,* 3.14.2.
79 *Ibid,* 3.15.1.cf.3.
80 See especially the argument in the opening chapters of book 3.1-4.
81 Adv. Hear. 1.9.4; 10.1-2; 2.27.1f, 28.1f; 2.38.4.
82 *Ibid,* 3.1.1; 2.3,4; 4.1; 5.1.

إيريناؤس عدّة خُلاصات للإيمان الرسولي، أو عدّة أمثلة لقانون الإيمان، تلك التي لها أهميّة كبرى كمصدر سابق للإيمان الرسولي وإيمان نيقية[٨٣].

الكرازة والإيمان والتعليم الكنسي الواحد:

يتحدّث القديس إيريناؤس عن الكرازة والإيمان الواحد قائلاً: "وهذا الإيمان الذي تسلّمته الكنيسة، بالرغم من إنها منتشرة في كلّ العالم، فهي تحفظه باجتهاد كما لو كانت تسكن في بيتٍ واحدٍ، وهي تؤمن بهذا وكأنّ لها عقلٌ واحدٌ ونفس القلب، وتكرز وتُعلّم تلك الأشياء وتُسلّمها باتفاق موحّد. يوجد لغات عديدة في العالم، إلاّ أنّ معنى التقليد واحد وكما هو. لأن نفس الإيمان تتمسّك به وتُسلّمه الكنائس المؤسّسة في ألمانيا وأسبانيا وقبائل القوط، وفي الشرق وفي ليبيا وفي مصر وفي المناطق الوسطى من العالم. ولكن كما أن الشمس وهي خليقة الله، هي واحدة وهي هي نفسها في كلّ المسكونة، هكذا أيضًا كرازة الحقّ تُشرق في كلّ مكانٍ وتُضيء كلّ البشر الذين يرغبون أن يأتوا إلى معرفة الحقّ. فليس أحدٌ من هؤلاء الذين يترأّسون في الكنيسة، مهما كان قويًّا في الكلام، يمكنه أن يقول أي شيءٍ مختلف عن ذلك (التقليدالسليم)، لأنه ليس أحدٌ أعلى من السيّد. مرّة أخرى ليس أحدٌ وإن كان ضعيفًا في الكلام، يُقلّل من التقليد. نظرًا لأنّ الإيمان واحد وهو هو نفسه، فمَن يتعامل معه بجديّة لا يُضيف إليه وليس أحدٌ له إمكانيّة ولو طفيفة أن يحذف منه شيئًا"[٨٤].

وهكذا في كلّ كرازة وتعليم الكنيسة، توجد قاعدة إيمانية لا تتغيّر في تسليمها، وبالرجوع إليها يمكن تفسير الأسفار المُقدّسة، وعقائد الإيمان واضحة في ترابطها وكذلك يستطيع الشخص أن يُميّز التعليم الخاطِئ ويبتعد عنه[٨٥].

---

[83] *Ibid,*1.10.1,2,3; 22.1; 2.30.9; 4.33.7; cf.2.35.4; 3.11.1. See F.R Montgomery Hitchcock, *Irenaeus of Lugclunum, A Study of his Teatching*, Cambridge, 1914, 69 ff : and Oscar Cullmann, *The Earliest Christian Confessions*, London, 1949, pp. 35ff,48ff.

[84] *Ibid,* 1.10.2.

[85] *Ibid,* 1.9.2-5; 10.3.

وبهذه الطريقة أيضًا، تتعامل الكنيسة مع الذين لهم نزعة للشقاق وتمزيق جسد المسيح[٨٦]. ويدافع القديس إيريناؤس، بإخلاصٍ حارٍّ لأجل ما هو مُسلّم للكنيسة، ولأجل التمسُّك الجّاد بتقليد الحقّ[٨٧].

وبسبب أنّ العلاقة غير المنفصلة للكنيسة مع الكرازة والإيمان اللّذين هما واحد وكما هما في تأسيس الكنيسة، وفي استمرارها وعموميّتها في العالم، يعتقد القديس إيريناؤس أن قوام الكنيسة وقانون الإيمان مبنيان معًا في الحقّ، ولا تزال الكنيسة بذلك دائمًا، وهي في كلّ مكانٍ، تنشأ من الحقّ نفسه، الذي هو ليس سوى يسوع المسيح، وهي دائمًا خاضعة له لأنّه هو الحقّ[٨٨].

ويُكمل القديس إيريناؤس حديثه عن التقليد الكنسي قائلاً: "المعرفة الحقيقيّة هي تعليم الرُّسل وترتيب الكنيسة القديم في كلّ مكانٍ في العالم، وسِمة جسد المسيح تبعًا لتعاقب الأساقفة الذي من خلاله قد تسلّموا تلك الكنيسة الكائنة في كلّ مكانٍ وقد انحدرت إلينا، محفوظة بالتفسير الكامل وغير المشّوه للأسفار المقدّسة بدون أن تسمح بأي إضافات أو أي حذف. هذه القراءة هي بدون تزييف وهي شرح قانوني ودقيق طبقًا للأسفار المُقدّسة، بدون خطرٍ أو تجديفٍ. وأيضًا يوجد فيها عطيّة الحبّ الرئيسيّة، التي هي أكثر كرامة من المعرفة وهي فائقة على كلّ العطايا"[٨٩].

والذي يتتبّع أثر التعليم وكذلك تكوين الكنيسة رجوعًا إلى قانون الإيمان ثم الأساس الرسولي، يجد أن القديس إيريناؤس يؤكّد بوضوح أنّ ذلك موجود أساسًا في الأسفار المقدّسة نفسها، حيث فيها شهادة الحقّ مُستقرّة، ولكن يجب تفسير الأسفار المقدّسة بطريقة صحيحة مع الحقائق التي تُشير إليها[٩٠].

وأمّا الغنوسيّون فقد برهنوا على أنّهم مفسّرون أشرار لكلمة الإعلان الجيّدة، وذلك بإخضاعها لتساؤلات وتركيبات ماكرة وخادعة، لهذا فهم قد

---

[86] *Ibid,* 4.33.7.
[87] *Ibid,* 3.4.1.
[88] *Ibid,* 3.1-5; 24.1-2; 24.25.1-5; 35.1f; 5.20f.
[89] *Ibid,* 4.33.8.
[90] *Ibid,* 3.12.9.

تبنّوا نفس لُغة الإعلان لتلفيقاتهم وأنماط أفكارهم المُنْحَرِفة[٩١]. ويشرح ذلك القديس إيريناؤس قائلاً: "وهم (الغنوسيّون) يحاولون أن يُتمّموا براهينهم، ليس فقط من الأسفار الإنجيليّة والرسوليّة، مفسدين التفاسير، وغاشين الشروحات، ولكن أيضًا من الناموس والأنبياء، حيث فيها العديد من الأمثال والمجاز ويُمكن أن يؤوّلوه إلى معانٍ عديدةٍ خلال شروحاتهم. وأيضًا البعض الآخر يكيّفون الأسفار المقدّسة، بمهارةٍ وخداعٍ، إلى تلفيقاتهم فيقودون الأسير بعيدًا عن الحقّ، بواسطة الّذين لا يحفظون بثباتٍ، إيمانهم في الله الواحد والآب كُلّي القدرة وبربٍّ واحد يسوع المسيح، ابن الله"[٩٢].

والردّ الذي يُقدّمه القديس إيريناؤس على أفكار الغنوسيّين المُنحرفة هو أنّ الأسفار المُقدّسة يجب أن تُفسّر تبعًا لنظام الحقّ الخاصّ بها الذي هو بحسب قانون الحقّ أو قانون الإيمان المُصاغ فعلاً بواسطة الرُسل أنفسهم الذين سلّمونا الأسفار المُقدسة[٩٣]، وبالتوافق مع الطريقة التقليديّة للشرح الموجودة في تاريخ وجماعة الكنيسة عمومًا، وذلك يكون بتوافق مع القسوس في الماضي والحاضر، بين هؤلاء والذين صاغوا التقليد الرّسولي للعقيدة[٩٤].

وبكلماتٍ أخرى، فإنّ تفسير الأسفار المُقدّسة يجب أن يكون داخل إطار الأساس اللاّهوتي للإيمان والاتّفاق الكنسي العّام، ويجب أن يُخْتَبَر من خلال الاحتكام لتاريخ الشرح في الكنيسة. والتفسير الخاص يجب أن يكون محكومًا داخل إطار وحدة الكنيسة وإيمانها، وكذلك الأحكام أو الآراء يجب أن تكون داخل نفس الإطار. وفي كلّ هذا يجب أن نتذكّر دائمًا أنّ الأسفار المُقدّسة هي روحيّة إلهيّة، ويجب أن تُفَسّر بطريقةٍ فيها نوقّر طبيعتها الخاصّة بوصفها منُحدرة إلينا من الله الكلمة وروح الله[٩٥].

---

[91] *Ibid,* I preaf. 1-2; 3.6.
[92] *Ibid,* 1.3.6; See also 1.8.1; 2.35.3; 3.5.1.
[93] *Ibid,* 3.1.1; 3.1f; 4.1f; 5.1f; 11.1, 7f; 12.1-12.
[94] *Ibid,* 3.21.3-4; 4.36.1-5; 27.1ff, 32.1,8; 5.20.1-2.
[95] *Ibid,* 2.28.2,3; 25.4; 5.20.2.

فالأسفار المُقدّسة تحتوي على أشياء روحيّة، لذا يُمكن إدراكها فقط روحيًّا. لهذا فالشخص المُفسّر للأسفار يجب أن يكون هو نفسه تلميذ روحي يعرف روح الحقّ الذي أوحَى للأنبياء والرسل، وذاك التلميذ الروحي من خلال عمل الروح القدس، سيكون بصيرًا للحقّ[٩٦]. لهذا لا يوجد مَنْ يقول بأنّ التلاميذ المسيحيّين لهم أي إعلان خاصّ أو بصيرة شخصيّة ذاتيّة أو معرفة خاصّة، لأن التلميذ الروحي له مكانة فقط في استمراريّة عمل الروح القدس في كلّ مكان في الكنيسة كلّها[٩٧].

ويتحدّث القديس إيريناؤس عن نقاوة التعليم المُسلَّم من الرسل للكنيسة قائلاً: "لهذا حيثما توجد مواهب الرب، فهناك يجب أن نُعلَّم الحقّ، بين الذين عندهم يوجد التسلسل الكنسي من الرسل، حيث يوجد صلاح وبرّ الحياة والنقاوة وعدم فساد الكلام (التعليم). لأنهم أيضًا يدافعون عن إيماننا باللّه الواحد الذي خلق كلّ الأشياء، ويشُجعون ذاك الحبّ الذي لنا من نحو ابن اللّه الذي يعمل مثل هذا التدبير الإلهي العظيم لأجلنا، ويشرحون الأسفار لنا بدون خطرٍ وبدون تجديفٍ على اللّه وبدون إهانة للبطاركة (آباء العهد القديم: إبراهيم وإسحق ويعقوب) أو احتقار للأنبياء"[٩٨].

---

[96] *Ibid,* 2.28.2.3; 4.23.1,7,14,15; 5.20.1.
[97] *Ibid,* 3.24.1.
[98] *Ibid,* 4.26.5.